شخصية الإمام الحسين عليه السلام ودورها في خلود الثورة الحسينية

الأستاذ المساعد الدكتور
أحمد عبد الأمير الأنباري
مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية ـ جامعة بغداد
dr.momeni135@yahoo.com

المقدمة:

مثلت ثورة الإمام الحسين عليه السلام منارا للإنسانية تستضيئ به دروب العزة والكرامة، بما تضمنته من دروس وعبر نهلت منها، ولازالت، المجتمعات الحرة التي لا ترتضي لنفسها أن تبقى أسيرة الظلم والجور الذي يمارسه الحكام الطغاة المستبدين.

ولهذا مثلت الثورة الحسينية عطاءً إنسانياً نهل منه المسلمون وغير المسلمين، وما يشير إلى ذلك كثرة من كتب عن ثورة الامام الحسين عليه السلام وتضحياته.

وتمثل ثورة الإمام الحسين عليه السلام محطة تحول ليس فقط في حياة الأمة الاسلامية بل في حياة البشرية. فالبعد الإنساني واضح في كأحد أبعاد الثورة الحسينية، التي استهدفت رفع الظلم عن الإنسان وتحريره من الخوف والقهر الذي مارسه حكام بني أمية. وأهداف الثورة الحسينية ومبادئها كانت ولازالت وستبقى منارا للثائرين ضد الظلم والقهر والفساد، طالما ان نموذج الحكم لحكام بني أمية القائم على الجور والظلم والقهر والفساد يتكرر إلى يومنا هذا.

ومثلت شخصية الإمام الحسين عليه السلام السبب الرئيس، إلى جانب أسباب أخرى في مقدمتها الرعاية الإلهية، في خلود الثورة الحسينية، وبقائها مصدراً لإلهام الثائرين وتحفيزهم للثورة ضد ظلم الحكام الظالمين لشعوبهم.

أولاً – مسؤولية وواجب الإمام الحسين عليه السلام في الخروج لطلب الإصلاح:

يعد العمل من أجل الاصلاح بما فيها الثورة ضد الحاكم الجائر واجب على المسلم، باعتبار أن الله تبارك وتعالى استخلف الإنسان في الأرض التي هي أرض الله، وبالتالي فان المسلم خليفة الله، وبهذا الوصف بذلك يكون المسلم مسؤولاً ومطالب بالعمل والتضحية في سبيل الله والمستضعفين. فالأصل أن يقاوم المسلم الظلم الموجود ويحارب كل ما من شأنه

أن يسبب الألم للناس. كما ان محاربة الظلم والفساد هو حق لكل مسلم، وليس للحاكم الحق في يصادر هذا الحق أو ينتقص منه، كما انه ليس من حق المسلم التنازل عنه أو تعطيله، فمصدر هذا الحق هو الشريعة المقدسة، ليتمكن المسلم من تأدية واجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]. وبهذا فان الاصلاح هو حق وواجب في الوقت نفسه.

بهذا المعنى، رأى الإمام الحسين عليه السلام " أن يقوم بواجبه الديني الذي فرضه الله سبحانه وتعالى على الإنسان المؤمن بالجهاد في سبيله، وبما فرضه (النبي صلى الله عليه وآله) على المسلمين بالجهاد في سبيل الله، وبما تلقنه هو من مبادئ وأهداف سامية من جده صلى الله عليه وآله وأبيه عليه السلام حتى يحفظ للإسلام نقاوته وصفاء مبادئه الجليلة، ويبعد الانحراف عنه خوفاً من تمكنه، كي يسلك المسلم الطريقة المستقيم الذي أوضحه الله للخلق ليسير فيه توجهاً إليه سبحانه "[٢].

أشار الإمام الحسين عليه السلام بشكل واضح إلى مسؤولية وواجب التصدي للحاكم الجائر. ففي خطبته بمنطقة البيضة لأصحابه وأصحاب الحر، الذين منعوه من دخول الكوفة، قال عليه السلام بعد أن حمد الله وأثنى عليه "أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عبادة الله بالإثم والعدوان، فلم يغّير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مُدخله) ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله، وأنا أحق من غير، قد أتتني كتبكم، وقدمت عليّ رُسلكم ببيعتكم؛ أنكم لا تُسلموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيَّ أُسوة... "[٣].

وهنا أراد الإمام الحسين عليه السلام بيان قضيتن رئيستين هما مسؤولية الحاكم تجاه الأمة ومسؤولية الأمة تجاه الحاكم. بيان حقيقة الحاكم الجائر الذي كان يتظاهر بالإسلام، ويحكم باسم خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أشار بشكل واضح إلى حكم بني أمية الجائر بقوله "إلا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأحلوا حرام الله، وحرموا حلاله...". فرسول الله صلى الله عليه وآله بربد أن تتصدى الأمة للحاكم الجائر من منطلق الشعور بالمسؤولية، وليس من منطلق اللامبالاة. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى صفات الحاكم

الجائر، بما رواه عن جده صلى الله عليه وآله، والذي يجب على الأمة أن تثور عليه. وهذه الصفات هي[٤]:

١- يستحل حرام الله: ولا يتورع في انتهاك حدود الله في حلاله وحرامه من أجل مصالحه الشخصية.

٢- ناكثاً عهده: يعاهد الله والأمة بأن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله، ثم لا يلتزم بذلك.

٣- مخالفاً لسنة رسوله: وسنة الله هي شريعة الله في حدوده وحلاله وحرامه.

٤- يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان: ولا يقوم للحق والعدل والانصاف وزناً.

فالأمر الذي أراده الإمام الحسين عليه السلام يرتبط بتأكيد موضوع " شرعية الثورة على ولاة الجور "[٥]، وهذا الموضوع على جانب كبير من الأهمية. إذ أراد البعض والى يومنا هذا الترويج لفكرة عدم شرعية الثورة ضد الحاكم المسلم الظالم الجائر، متكئين على حجج واهية لا أساس لها، ولا يمكن للعقل السليم أن يقبلها.

وبهذا أوضح الإمام الحسين عليه السلام أن من صميم واجبه ومسؤوليته أن يخرج لطلب الإصلاح في أمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتصدى للحاكم الجائر ونظامه الفاسد. فهو عليه السلام يتحمل مسؤولية الإسلام والمسلمين في التصدي للانحراف الذي يسعى حكام بني أمية لإشاعته. وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى موقعه الخاص كونه ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وابن وصيه أمير المؤمنين عليه السلام وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، بقوله "... فأنا الحسين بن علي وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله"[٦]. ويشير قول رسول الله صلى الله عليه وآله "حسين مني وأنا من حسين" إلى مسؤولية وواجب الإمام الحسين عليه السلام في الحفاظ على الدين[٧]، ذلك ان "الإسلام محمدي الوجود، حسيني البقاء، فالعلة المُحدثة هي شخص خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، ولكن دماء سيد الشهداء عليه السلام هي العلة المبقية"[٨].

بهذا المعنى، فإن الثورة في فكر الإمام الحسين عليه السلام تعني[٩]:

١- يمثل الإسلام ثورة إنسانية شاملة في جانبه الروحي، استهدفت التصدي للظلم الاجتماعي، واستبداد القوي بالضعيف. وبهذا فإن الاسلام يمثل رؤية جديدة للعالم في مختلف الجوانب.

٢- ان الأساس الذي قامت عليها الانتصارات التي حققها الاسلام تعود إلى الايمان بالمبادئ التي جاء بها الاسلام، وتأثيرها أكثر بكثير من تأثير قوة السلاح وعدد المقاتلين. فرغبة المسلم بالشهادة في سبيل الاسلام وتفضيلها على الحياة كان عاملاً

حاسماً في تحقيق الانتصارات.

٣- الاسلام ثورة شاملة، لا تمييز لديه في الأفضلية بين الجوانب الاجتماعية، والفكرية، والروحية.

٤- إن الدعوة إلى تطبيق العدالة الاجتماعية تعتمد على ما يستوعبه عقل الإنسان من الفكر والعقيدة والمبدئية.

٥- عندما يسود الصراع في الأمة على المناصب، وتستخدم القوة والعنف والظلم والاضطهاد كأدوات لذلك الصراع، ويتزامن معه الانحراف عن الشريعة الاسلامية، تحتاج الأمة إلى هزة عنيفة تعيد للأذان أصل الاسلام ومبادئه الذي جاء به رسول الله محمد صلى الله عليه وآله. وهذه الهزة تتمثل بالثورة الاصلاحية في الأمة لتصحح ما ساد فيها من وضع جديد قوانين جديدة بعيدة كل البعد عن اسلام محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله. وهذه الثورة الاصلاحية في الأمة تحتاج إلى التضحية بسبب انعدام التكافؤ في الصراع، وهو ما استدعى ايجاد وسائل جديدة للثورة الاصلاحية.

٦- الثورة الحقيقية في النظام الاسلامي هي تلك التي تستمد شرعيتها بتبنيها لشعار العودة إلى المبادئ الاسلامية الصحيحة، كإحقاق الحق، والمساواة في الحقوق والواجبات، والعدالة. وهي المبادئ التي تؤكد نبل مبادئ الاسلام ومعتقداته.

٧- المشاريع الاصلاحية لا تؤتي ثمارها الا بالتضحية والفداء. على ان المشروع الاصلاحي يحتاج إلى رجل من العظماء لديه رؤية واضحة لمشروعه، ولديه العزم الأكيد على المضي به للنهاية دون أدنى تردد. فالقادة والثوار العظماء لا يرد ضمن تفكيرهم التردد والتراجع، وحتى عندما تتوفر لهم فرصة التراجع فانهم لا يفكرون بها، وجل ما يشغل تفكيرهم هو الاندفاع نحو مهمته الاصلاحية بغض النظر عن العواقب.

٨- الثورة تمثل مرحلة ضمن مراحل التطور الاخلاقي للبشر، وبهذا فإنها ليست مجرد تغيير تستهدفه مجموعة مقهورة لتدفع عنها القهر وتحصل على حقوقها.

ثانياً - الأسباب الرئيسة لثورة الإمام الحسين عليه السلام:

عند خروج الحاكم عن شريعة الله تبارك وتعالى تصبح معارضته أمر واجب على المسلم، لأن الحاكم يصبح عندها فاقد للشرعية، إذ تتوقف شرعية السلطة في الاسلام على أمرين[١٠]:

١- يتوقف الأمر الأول على "إقامتها لشريعة الله، فإن عدلت عنها أو عدلت بها، عدلنا بالسلطة أو عدلنا عنها، إذ أن طاعة الله ورسوله واجبة ومتقدمة على طاعة أولي الأمر. ولا خلاف في جهاد من منع بعض شريعة الله، وأولى به من منع كل شريعة الله".

٢- يتوقف الأمر الثاني على "رضى الناس عنها، فأولي الأمر لا يكونون منها بغير رضى، والإمامة عقد عند الفقهاء: عقد بين الإمام والرعية، وأساس العقود الرضى. وتكون ولاية المتغلب ليست أصلاً فلا تجوز لأنها خروج على قاعدة التراضي، لذا حبذ الفقهاء التخلص منها كلما كان ذلك ممكناً...".

ثالثاً - مصادر تأثير شخصية الإمام الحسين عليه السلام:

إن ما تتمتع به شخصية الإمام الحسين عليه السلام من فضائل نفيسة كان له أبلغ الأثر في تخليد ثورته.

ودراسة هذا الأثر يفرض الأخذ بالاعتبار سيرته الذاتية، ونسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ونظرة المسلمين لشخصيته.

ففيما يخص سيرته، فقد عرف عنه عليه السلام بأنه كان "مجمعاً لكل الفضائل النفيسة التي ميزته عن كل أقرانه ومعاصريه فقد عرف في كل شيء إنه الأفضل، فهو الاعبد في زمانه، والأشجع، والأعلم، والأكرم، والأحلم، والأسمح، والأتقى، والازهد"[١١].

أما نسبه الشريف إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فهو يتمثل بكونه من العترة الطاهرة، وهو في زمانه الوريث الوحيد لرسول الله صلى الله عليه وآله. ولهذا احتج الإمام الحسين عليه السلام بصلته برسول الله صلى الله عليه وآله. ومنها يوم عاشوراء عندما خاطب الجيش الذي جاء لقتله بقوله "أيها الناس انسبوني من أنا؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ الست ابن نبيكم وابن وصيه وابن عمه". كما احتج بهذه الصلة أصحاب الإمام الحسين صلى الله عليه وآله على الجيش الأموي، كما في خطبة زهير بن القين لهم " عباد الله إن ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية فان لم تنصروهم فأعيذكم بالله أن تقتلوهم". بهذا المعنى يكون "نسب الحسين عليه السلام إلى رسول الله أعطى للحسين عليه السلام نوعاً من الحصانة قبل الثورة وفي أثناءها وما بعدها، ولازال هذا العنصر الحساس يزيد من التفاعل الجماهيري بتنها وبين القضية الحسينية ولو قلبنا صفحات الأدب الحسيني لوجدنا إجماع الأدباء على ان قتلة الحسين عليه السلام

ارتكبوا جريمة بحق الرسول صلى الله عليه وآله بقتلهم سبطه الحسين عليه السلام، وعليه فلا زالت هذه الصلة تحمي وتدافع عن أهداف الحسين وشخصيته"[١٢].

أما الاعتبار الثالث هو نظرة المسلمين لشخصية الإمام الحسين عليه السلام، الذي حظي باحترام المسلمين له، لما له هيبة وجلال وتأثير في نفوس المسلمين[١٣].

وقد وصف المسيو ماربين الثورة الحسينية بالقول "قد قتلوا كثيرا من الرؤساء الروحانيين وأرباب الديانات ظلما وقامت الدعوة من بعد قتلهم وسلّ اتباعهم السيوف على أعدائهم كما تكرر ذلك في بني إسرائيل وقضية يحيى هي أحد الوقائع التاريخية الكبرى وتلك الخطة التي سلكها اليهود مع السيد المسيح عليه السلام إلى ذلك الزمان لم يقع نظيرها ولكن واقعة الحسين عليه السلام كانت عن علم وحكمة وسياسة وليس لها نظير في تأريخ الدنيا"[١٤].

فالإمام الحسين عليه السلام كان ثائراً من نوع خاص بحيث أن التاريخ لم يسجل مشهداً ثورياً كالمشهد الثوري للإمام الحسين عليه السلام. وأصبحت الثورة الحسينية مناراً لكل الحركات التي تستهدف تغيير الواقع الذي يعيشه المجتمع إلى الحالة الأفضل[١٥].

رابعاً – نتائج الثورة الحسينية:

أعطى الإمام الحسين عليه السلام بتضحيته، الفريدة من نوعها، دروساً بالغة الأهمية، وكان لها الأثر الكبير في تأكيد انتصار ثورة الإمام الحسين عليه السلام، وبقائها إلى يومنا هذا نبراساً يحفز الناس لأجل الإصلاح وعدم الركون للظلم والقهر، ودليلاً للثائرين يهتدون به في دروب الحرية والعزة والحفاظ على الكرامة الإنسانية. ومن تلك الدروس ما قدمه الإمام الحسين عليه السلام إلى البشرية في المعنى الفدائي والنضالي والعقائدي. إذ ان الإمام عليه السلام "أثبت للناس وللأجيال اللاحقة بأن العطاء الإنساني ليس له حدود عندما يوجد من البشر من يؤدي دوراً كالدور الذي نهض به الإمام الثائر"[١٦].

وهو درس لثائر من طراز فريد ومتميز قدمه الإمام الحسين عليه السلام، ولا يسجل التاريخ عن ثائر بهذا المعنى والمستوى من الاخلاص والتضحية لما يؤمن به.

بهذا المعنى، فإن الثورة الحسينية تمثل "الأولى والرائدة والوحيدة في تاريخ الإنسانية مذ وجدت وحتى تنقضي الدهور، إذ هي خالدة خلود الإنسان الذي قامت لأجله". فهي

الأولى "لأنها غي إطار الديني كانت أول ثورة سُجلت في تاريخ الإسلام، وكذلك في تاريخ الأديان السماوية الأخرى، ما كان منها على مستوى المبادئ أو القيم العقائدية". وهي رائدة "لأنها مهدت لروح ثورية وثورة روحية انطوت عليها صدور المسلمين، تذكّرهم في نومهم وقعودهم بمعنى الكرامة، وبمعنى أن ينتصب المؤمن كالطود الصلب في وجه موقظي الفتنة باسم الدين، ورافعي مداميك الشرك والعبث في صرح العقيدة، فكانت دعوة جاهزة لنقض هذه المداميك، وهدم دعائم الضلال والوقوف أمام أهداف الذين حادوا عن صراط الشريعة، ولعبوا بنواميس وشرائع الدين...". وهي وحيدة "لأنها استحوذت على ضمائر المسلمين فيما خلّفته من آثار عقائدية ضخمة، فما كان قائماً من ممارسات لدى القائمين على الإسلام والحاكمين باسمه.. كان بحاجة إلى هزة انتحارية فاجعة لها وقع الصاعقة آنذاك، ومسرى الحب في الضمائر بعد أجيال وحقّب تالية". وهي خالدة لأنها إنسانية أولاً وآخراً، انبثقت من الإنسان وعادت إليه مجلّلة بالغار، وملطخة بالدم الزكي، ومطهرة بزوفى الشهادة المثلى، فظلت في خاطر المسلم رمزاً للكرامة الدينية، شاهد من خلالها صفحة جديدة من مسيرة عقيدته، تُهدي وجدانه إلى السبيل القويمة التي يتوجب عليه السير في مسالكها ليبلغ نقطة الأمان الجديرة به كإنسان"(١٧).

Abstract

The Revolution of Emam Hussein (peace upon him) represented a light for humanity that candle the roads of dignity. It consisted lessons and wisdoms. The free societies still don't agree to be prisoners for unjustice that is done by the cruel rulers. So the Husseiny Revolution become a source of human grant for muslems and non – muslems. That is clear by the books about Hussein Revolution which become a turn point in the life of Islamic nation and Humanity. This Revolution aimed to lift unjustice from human and liberate from cruel behavior that has been done by the cruel rulers of Beny – Umaya. The aims and principles of Husseiny Revolution were and still a light for the rebels against unjustice and corruption. The Sample of Beny – Umaya is still repeated up to now. The Emam Hussein personality was the main reason. The another reason and the first is the God care in emortality of Husseiny Revolution.

هوامش البحث ومصادره

(١) د. يوسف جعفر سعادة، الجهاد بين النظرية والتطبيق من خلال ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٧، ص٦٩ - ٧١.
(٢) د. يوسف جعفر سعادة، الجهاد بين النظرية والتطبيق، ص ١٤٣.
(٣) عدنان آل قاسم، نهضة كربلاء والعزة الحسينية دراسة تحليلية موضوعية في نهضة الإمام الحسين عليه السلام ودورها في عزة الأمة الإسلامية وكرامتها، دار السلام، بيروت، ٢٠١٢، ص ٣٩٧.
(٤) عدنان آل قاسم، نهضة كربلاء والعزة الحسينية، ص ٣٩٨ - ٤٠٠.
(٥) محمد الشوكي، نفحات عاشوراء، سلسلة نفحات عاشوراء ٢، دار الجواد عليه السلام للتحقيق والنشر، ٢٠٠٥، ص ٤٤.
(٦) عدنان آل قاسم، نهضة كربلاء والعزة الحسينية، ص ٤٠٠ - ٤٠١.
(٧) علي الحسيني، مصائب رأس سيد شباب أهل الجنة الحسين بن علي بن أبي طالب ع، ط ٢، دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٧.
(٨) محمد رضا الحسيني الشيرازي، الإمام الحسين عليه السلام عظمة إلهية وعطاء بلا حدود، مؤسسة أنصار الحجة النبوية ومؤسسة الفقيه، كربلاء، ص ٢٨.
(٩) عبد الصاحب ناصر آل نصر الله، التضحية والرمز دراسة نقدية بالرواية التاريخية عن ثورة الحسين عليه السلام، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٤٧٢ - ٤٧٧.
(١٠) د. يوسف جعفر سعادة، الجهاد بين النظرية والتطبيق من خلال ثورة الحسين بن علي عليه السلام، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٧، ص ٦٧ - ٦٨.
(١١) محمد الهنداوي، عوامل خلود الثورة الحسينية، دار الطالب، بيروت، ١٩٩٨، ص ٢٢ - ٢٤.
(١٢) محمد الهنداوي، عوامل خلود الثورة الحسينية، ص ٢٤ - ٢٧.
(١٣) محمد الهنداوي، عوامل خلود الثورة الحسينية، ص ٢٧ - ٢٨.
(١٤) محمد الهنداوي، عوامل خلود الثورة الحسينية، ص ٢٨.
(١٥) باسم الماضي الحسناوي، الإمام الحسين عليه السلام تاريخياً بين القراءة الفلسفية والسرد الاعتباطي عند ابن الأثير، ٢٠١٢، ص ٢٨ - ٣١.
(١٦) عبد الصاحب ناصر آل نصر الله، التضحية والرمز دراسة نقدية بالرواية التاريخية عن ثورة الحسين عليه السلام، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٥٩١.
(١٧) د. أنطوان بارا، الحسين في الفكر المسيحي، ط ٥، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٧٠.